المؤرخون في مصر
في القرن الخامس عشر الميلادي
(القرن التاسع الهجري)

محمد مصطفى زيادة

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب — جامعة فؤاد الأول

محتويات الكتاب

	صفحة
تصدير	٥ — ل
الفصل الأول — المقريزى ومعاصروه ...	٣ — ٢٥
الفصل الثانى — أبو المحاسن ومعاصروه	٢٦ — ٤٥
الفصل الثالث — ابن إياس ومعاصروه ...	٤٦ — ٨٠
الفصل الرابع — خاتمة ونقد مقارن ...	٨١ — ١٠٥
فهرس بأسماء كتب المؤرخين	١٠٧ — ١١١

تمهيد

الحاجة الشديدة إلى معجم يحوى سير الذين يرجع إليهم فضل التوجيه فى المجتمع المصرى، على مختلف الأزمنة، أمر مفروغ منه، والشروع فى ذلك المعجم عملٌ ينادى هل من مبتدئ، ولستُ أعرف ممن استمعوا إلى هذا النداء وأصاخوا ثم استجابوا إلا نفراً كريماً قليلاً، والعمل ضخم يتطلب مجهوداً أضخم، والحماسة الفردية فيه كالغناء بصوت مرتفع فى البادية الموحشة.

ويعذرنى القارئ إذا أنا قلت فى إيمان راسخ إن مشروع ذلك العمل لا يقل أهمية — فى حاضر الأمة ومستقبلها — عن مشروع مكافحة الأمية، أو مشروع الإلزام فى التعليم الابتدائى، فهو مثلهما نوع من المكافحة فى سبيل النهضة العامة، وهو مثلهما كذلك فى حاجة إلى عدد من الأيدى العاملة فى همة نشيط. وما أبرئ نفسى من إقبال على الدعوة إلى ذلك المشروع أحيانا متقطعة، كما لا أبرئها من إدبار عن الكلام فيه أحيانا أقل تقطعا، ولعلى أكفر عن هذا وذاك بالصفحات التالية الحاوية لأخبار المؤرخين الذين عاشوا بمصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجرى)، وخلّفوا من

المؤلفات ما سوف يبقى المصدر الأول لما نحتاج من معرفة لأحوال ذلك العصر من تاريخ وثقافة ، وأدب واقتصاد ، وسياسة واجتماع ، ولا سيما إذا أضفنا إلى تلك المؤلفات ما هنالك من كتب أخرى مغمورة ، وآثار كثيرة شبه مطمورة الأوصاف فى كتب الأخصائيين .

وأحب هنا أن أقرّر فى غير تردّد أو لبس أنى لا أدعى القول الفصل فى المؤرخين بمصر فى القرن الخامس عشر الميلادى بهذه الفصول القليلة ، وأنى لا أعتبر نفسى ملأت فراغاً كبيرا من مشروع المعجم الذى يجب أن يتوفر على ملئه مجمع من الباحثين ، إذ الصفحات التالية لا تعدو أن تكون محاولة هى الأولى من نوعها ، وهى كذلك لا تعدو أن تكون معالجة لأخبار طائفة مفردة من طوائف المؤرخين فى بلدٍ ذى تاريخ مديد . والعارفون بالتأليف العلمى الحديث يدركون تمام الإدراك ، أن الموضوع الواحد فى علم من العلوم كائنا ما كان ، يستطيع — بل ينبغى — أن يظل ميدانا مفتوحا للاجتهاد ، والتعديل بالحذف والإضافة ، جيلا بعد جيل ، على شرط الإحسان والتدرج نحو الكمال ، والعكس غير مطلوب أو مرغوب فيه ، وهذا بديهى .

وأحب هنا كذلك أن أهمس فى أذن الراغبين فى الكتابة فى طائفة أخرى من المؤرخين فى مصر — وأرجو أن يكون من أولئك الراغبين كثرة فى القيمة لا العدد — أنى لم أستعمد

حقائق من كتب التراجم فحسب ، بل قرأت جميع ما وصلت إليه يدى من مؤلفات القرن الخامس عشر الميلادى بمصر فى التاريخ وغير التاريخ — مطبوعة ومخطوطة — ، وأخرجت منها معلومات كثيرة عن طريق المقارنة والاستنتاج ، كما عثرت على بعض ما دوّنتُ هنا من حقائق تاريخية فى غير مظانها من الكتب المعروفة .

وللقارئ أن يسأل هنا عن الغرض الذى من أجله هدفتُ إلى الاقتصار على الترجمة لطائفة دون غيرها من المؤرخين فى مصر ، والجواب أنى لم أهدف بذلك إلى غرض معين . بل الواقع أنى أعددت هذه التراجم سنة ١٩٢٧ م لتكون فصلا إضافيا لرسالتى فى الدكتوراه بعد الاستقرار على عدد فصولها ، إذ رغب الأستاذ المشرف وقتذاك أن أشرح له الأصول والمنابع العربية التى استقيتُ منها حقائق الكثيرة ، ليكون على بيّنة من أمر تلك الحقائق وأمرى ، وليلقى علىّ درساً فى الجرح والتعديل (historiography) ، وهى العدالة والضبط على قول المحدّثين . ثم غدوتُ مدرساً بعد ذلك بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، وانصرفتُ انصرافا مجزوءاً لتدريس تاريخ الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر والشام ، وألفيت هذه التراجم خير مقدمة لدراسة المرحلة الأخيرة من التاريخ المملوكى ، فنقلتها من الإنجليزية إلى العربية ، وأضفت إليها ما استطعت أن أضيف

من جديد ، ونشرت معظمها بمجلة الثقافة الأسبوعية سنتى ١٩٤٠ — ١٩٤١ م . ثم كان أن ظهرت لى مادة جديدة مما تنشره المطابع بالشرق والغرب من متون وبحوث ، فمكنت مرة أخرى على تعديل هـذه التراجم ، وغيرت بعضها تغييراً كليا بالحذف الكثير والإضافة الكثيرة ، وبذا أودعت هـذه الصفحات جميع ما جدّ علىّ من فكرة ومادّة فى المؤرخين بمصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وتقدّمت بها للظهور فى مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ولست أريد من هذا الظهور تنويهها بتلك الفئة من المؤرخين فحسب ، بل أريد كذلك تنبيهها إلى كتبهم التى لا يزال معظمها فى ظلمات المخطوطات ، إما بدار الكتب الملكية فى نسخة فريدة كاملة أو ناقصة ، وإما بمختلف مكتبات الشرق والغرب فى نسخ نحن فى أعظم حاجة إلى اقتناء صور منها . وهذه الكتب متفاوتة القيم ، والحاجة إليها كذلك متفاوتة الدرجات ، والمنطق العملى السليم يوحى إلى الاهتمام أولاً بالأهم من تلك الكتب دون مراعاة حجمها من حيث الكبر والصغر ، إذ تبين أنّ لبعض الكتب الصغرى من القيمة ما تقصر عنه الكبرى[1] . ومن أجل هذا وذاك دعوت — مرة بعد مرة — إلى ضرورة العناية بنشر

---

(١) انظر ما يلى ص ٩٠ — ٩١ .

المخطوطات التى لن تستقيم كتابة التاريخ المصرى بدونها فى صورة مطبوعة ، ودللت على إخلاصى لهذه الدعوة بنصيب لا يزال فى نظرى قليلاً .

وسوف يلحظ القارئ أنى اخترت توقيت هذه التراجم وتواريخها بالسنوات الميلادية ، لا حبًّا فيها ، ولا هجرا للتوقيت الهجرى ، ولا إمعانا فى الفرنجة . بل قصدت بذلك أن أجعل من هذا البحث الصغير مرآة لناحية من الحياة العلمية والثقافية بمصر فى العصور الوسطى بمعناها العام ، لا بمعناها الإسلامى الخاص ، لأدل على مبلغ ما أسهمت به مصر فى التراث الإنسانى ، وأبرهن على أن المجتمع المصرى الإسلامى فى العصور الوسطى جزء هام من المجتمع البشرى فى تلك العصور . ولذا عنيت بالمقارنة هنا — فى هذه المقدمة — بين مؤرخى القرن الخامس عشر الميلادى فى مصر وأوربا ، فهذا القرن الذى أنجب المقريزى وابن حجر وابن عربشاه وأبا المحاسن والسيوطى وابن إياس وغيرهم فى مصر ، هو الذى أنجب جنا لفيڤر (Jean le Fèvere) وفرواسار (Froissart) ومونسترولیه (Monstrelet) وشاستلان (Chastellain) وبرسيڤال دُكاني (Perceval de Cagny) فى أوربا .

غير أن المقارنة لا تقف عند الأسماء فحسب ، بل تتعدى إلى الخصائص والوسائل والغايات عند المؤرخين فى مصر وإخوانهم

فى أوربا — كل على شاكلته ونضج بيئته وشخصيته وأحواله — فابن حجر أشبه حنا لفيثر فى أن كلا منهما تولى وظيفة كبيرة مسئولة فى بلده ، وكتب وهو على تلك الوظيفة مذكرات ضافية فى بعض صفحاتها بأسرار عصره ؛ وابن عرب شاه أشبه برسيقال دُكانى فى أن كلا منهما نصب نفسه لكتابة تاريخ فى مدح ملك أو سلطان ، وهذا وذاك على سبيل المثال لا الحصر . وأكثر من ذلك أن معظم المؤرخين فى مصر وأوربا فى القرن الخامس عشر الميلادى استخدموا وسائل متشابهة فى جمع الحقائق والأخبار وتدوينها ، فتعقبوا الحوادث وتفاصيلها كما يتعقب الصحفى مادته للصحيفة اليومية ، وابتدأوا مؤلفاتهم بأصل الكون وتاريخ الخليقة ، وانتهوا بالسنوات التى عاصروها وشهدوها ، على نظام الموسوعات القديمة (summa) ، كما دأبوا على طريقة الحوليات الرتيبة ، ونقلوا من كتب السابقين فى غير خشية أو قصد أو اعتراف بالنقل ، مع الاشتغال بنظم الشعر والإجادة فيه إلى جانب صناعة التاريخ (١)

ثم إن تاريخ القرن الخامس عشر الميلادى فى مصر يشبه

(١) يرجع الفضل فى معظم المادة الأوربية لهذه المقارنات إلى الدكتور ع . و . كوپلاند (G. W.Coopland) الأستاذ الزائر بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، وهو الذى أشرت إلى سابق فضله علىّ فى دراسة الدكتوراه بجامعة ليڤربول بإنجلترا .

أخاه فى أوربا ، بل يتبين من المقارنة بينهما أنه إذا كان ذلك القرن عصر انتقال وانقلاب فى التاريخ الأوربى ، فهو عصر أكثر انتقالا وانقلابا فى التاريخ المصرى ، إذ شهد ذلك القرن مطلع النهضة الأوربية الكبرى ، ومصرع البقية الباقية من الدولة الإسلامية فى أسبانيا ، وحركة الكشف الأوربى فى سبيل الوصول إلى الهند عن طريق المحيطين الهندى والإطلنطى ، كما شهد موجة الغزو المغولى بالشرق على يد تيمورلنك ، وهى الموجة التى هددت كيان المماليك بمصر والشام وكيان العثمانيين بآسيا الصغرى وأوربا ، وكادت تقضى على كلّ من الدولتين بدوره . غير أن الدولة المملوكية ما لبثت أن أفاقت واستطاعت أن تصفى الحروب الصليبية تصفية نهائية بالاستيلاء على جزيرة قبرص ، والتمنية على ذلك بمحاولة الاستيلاء على جزيرة رودس ، كما استطاعت الدولة العثمانية أن تصفى البيزنطيين تصفية نهائية كذلك بالاستيلاء على القسطنطينية وتحويلها عاصمة للعثمانيين . على أن قصة القرن الخامس عشر الميلادى فى مصر والشرق لم تتمّ فصولا إلا بعد قيام الدولة الصفوية بفارس ، إذ تمخّض الوضع لدول الشرق عن تنافس بين الصفويين والعثمانيين على السيادة فى العالم الإسلامى ، ونهوض المماليك للمحافظة على تلك السيادة التى استقرّت فى دولتهم منذ إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة منتصف القرن الثالث عشر الميلادى . ثم انتهى الأمر كلّه حين أزال العثمانيون

دولة الصفويين ودولة المماليك ، وحلوا محل هذه وتلك بتبريز والقاهرة ، وغدت القسطنطينية عاصمة للمسلمين ، وتغيّر محور الارتكاز في الدولة الإسلامية أعظم تغيير .

وأودّ أن أختتم هنا في نغمة من الشكر لأصحاب الفكرة والفضل في ظهور هذه التراجم مطبوعة في كتاب مستقل ، وأولهم الدكتور أحمد أمين بك رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر ، فهو الذي أشار عليّ بجمعها أيام نقلتُها إلى العربية ، ثم الأستاذ محمد شفيق غربال بك وكيل وزارة المعارف فهو الذي نصحني بتقديمها على غيرها مما عندي من ثمرات المطالعة ومجاني المحاضرة ، ثم الأستاذ عبد الحميد العبادي بك ، عميد كلية الآداب بجامعة فاروق الأول ، فهو الذي قرأ هذه الصفحات وأشار بتعديل بضع من عباراتها قبل إنفاذها للطبع . وأودّ كذلك أن أشكر تلميذيّ وصديقيّ حسن حبشي وأحمد عيسى ، فلكل منهما فضل في ظهور هذا الكتاب ، إذ ساعدني أولهما في الترجمة الأولى من الإنجليزية إلى العربية ، وقام ثانيهما على ترتيب فهرس المؤلفات الوارد هنا بعد الخاتمة ، كما جهد مع مطبعة اللجنة على أن يخرج هذا الكتاب في صورة جديرة بالقارئ العربي الحديث

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة { ٢٦ جمادى الأولى سنة ١٣٦٨ هـ .
٢٦ مارس سنة ١٩٤٩ م .

المؤرخون فى مصر

فى القرن الخامس عشر الميلادى

(القرن التاسع الهجرى)

الفصل الأول

المقريزى ومعاصروه

ربما دلّ البحث المقارن فى عصور التاريخ — وهو ميدانٌ بكر لاستجلاء الأسس العامة فى الحضارة الإنسانية — على أن القرن الخامس عشر الميلادى ، أى القرن التاسع الهجرى تقريبا ، أهم العصور التاريخية عند الإطلاق ، بسبب ما بدا فيه من عناصر توجيهية وأحداث مؤذنة بتغير أحوال الدول ، والجماعات والأفراد ، بالغرب والشرق سواء .

وكفى دليلا هنا على صحة هذا الفرض التاريخى أن الأوربيين مضوا جاهدين أن يصلوا مباشرة إلى الهند وتجارتها طول هذا القرن ، حتى إذا وصل البرتغاليون منهم إلى الشواطئ الهندية صار مصير الشرق كله فى كفة المقادير العاجلة . ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ البعيد ، بل عثر الأوربيون حوالى ذلك الوقت على أرض أخرى حسبوها الناحية الغربية من الهند ، وسموا أهلها الهنود الحمر ، ثم استقرّوا على تسمية تلك الأرض وسكانها أمريكا والأمريكيين ، ووجّهوا وجوههم شطرها وشطر الهند الحقيقية فى عنف لا هوادة فيه ونهم شديد ، مما يرجع كله فى

الأصل إلى القرن الخامس عشر الميلادى وحوادثه .

وللمؤرخين فى مصر فى ذلك القرن ظاهرة توجب الالتفات ، وهى فى الواقع برهان على بدء العالم الإسلامى فى شىء من الإفاقة لفهم كيانه ، ولعل أكبر دليل على وجود تلك الظاهرة تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ، لا سيما الجزء الأول منه ، وهو الجزء المعروف باسم المقدمة ، إذ يرى القارئ بصفحاته الافتتاحية تعريفا أخّاذا للتاريخ بأنه " فى ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأول . . . ، وفى باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق[1] " . والواقع أن ابن خلدون يشير إلى العلل والكيفيات ، والأسباب والنتائج ، بتلك الصفحات الافتتاحية إشارات كثيرة ، مما يدلّ على فقهه التام للتاريخ بالمعنى الحديث ، كما أنه يشير إلى ما يجب أن يتدرّع به المشتغل بالتاريخ من المؤهلات حين يقول إن المؤرخ الصالح " محتاج إلى مآخذ متعددة ، ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت ، يفضيان بصاحبهما إلى الحق ، وينكبان به عن المزلات والمغالط ، لأن الأخبار إذا اعتُمد فيها على مجرد النقل ، ولم تحكّم أصول العادة وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران والأحوال

---

(١) ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر — طبعة بولاق — ج ١ ، ص ٣ .

فى الاجتماع الإنسانى ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق . . . "(١)

كتب ابن خلدون تاريخه بعد أن تنقل فى البلاد الإسلامية بالأندلس والمغرب ، وعاش فى بلاط سلاطينها المسلمين ، وتقلب فى خدم دواوينهم ، أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، كما سفر لأحد أولئك السلاطين ، وهو محمد الخامس سلطان غرناطة ، عند بيترو (Pietro) ملك قشتالة المسيحية ، وبذا شهد بنفسه أحوال الكثير من الدول عن كثب ، ولمس بيده عوامل التدهور الناشبة أظفارها بين المسلمين والمسلمين ، مما جعل لكتابه على وجه التعميم ، والمقدمة على وجه التخصيص ، قيمة تاريخية فريدة . ثم وفد ابن خلدون إلى مصر سنة ١٣٨٢ م ، وكان انتهى من تأليف كتابه قبل ذلك ببضع سنين ، فأقام بالإسكندرية والقاهرة إقامات متقطعة ، وحج أكثر من مرة ، ودرّس بالجامع الأزهر ، والمدرسة القمحية وموضعها قرب جامع عمرو ، بل تولى منصب قاضى القضاة المالكية بمصر ، كما رافق الحملة المملوكية التى قادها السلطان فرج إلى الشام سنة ١٤٠١ م لدفع تيمور لنك عن دمشق ، وشارك فى وفد المفاوضة للصلح بين الدولتين المملوكية والمغولية .

---

(١) ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر — طبعة بولاق — ج ١ ، ص ٧ .

أما منبع الأهمية فى هذه التفاصيل الخاصة بحياة ابن خلدون ، فهو أنها تنبئ بأصناف التجارب التى تمرّس بها وأودع منها فى كتابه ، كما أنها تدلّ على اتصاله الطويل بكثير من العلماء والمؤرخين فى مصر والشام وغيرهما من البلاد ، بل تدلّ الراجح على أن اتصالاته بعلماء مصر ومؤرخيها بالذات أدت إلى تكوين مدرسة حوله من المعجبين به والمتتلمذين على طريقته[1] ، كما أدت إلى قيام فئة من الغامطين لمقامه[2] والمنددين بمقدرته . وإذا لم يتسع البحث هنا لأكثر من هذه الإشارة العابرة ، فإن فى أخبار تلاميذه ، والتابعين له بإحسان وغير إحسان ، برهانا على أن قصة المؤرخين فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى لا تتم إلا بذكر ابن خلدون والإشارة إلى فضله ، ولو لم يتسع الأمر لشىء سوى كلمات معدودة .

أما أول أولئك التلاميذ فهو أحمد بن على المقريزى ، الذى ولد بالقاهرة سنة ١٣٦٤ م ، بحارة برجوان بقسم الجمالية الحالى ؛ والمقصود بالحارة هنا الفندق أو الخان أو الوكالة على حد المصطلح المصرى فى العصور الوسطى ، أو العمارة الكبيرة على حد التعبير الحديث ، ولا يزال استعمال لفظ الحارة بالمعنى القديم سائداً ببلاد الشام . وجاءت أسرة المقريزى إلى القاهرة من بعلبك فى حياة أبيه

(١) انظر ما يلى ص ١٣ — ١٥ .
(٢) انظر ما يلى .

علىّ ، وأصل نسبتها يرجع إلى حارة المقارزة بتلك المدينة الشامية القديمة ، ولا يسع الباحث هنا إلا أن يشير إلى الشبه الملحوظ بين هذه التسمية ولفظ مقريزى (Maccarese) ، وهى جهة بإيطاليا قرب[١] روما ، مما يحتمل معه أن تلك الحارة البعلبكية كانت سكناً لجالية من الجاليات الإيطالية التى وفدت للتجارة ببلاد الشرق الأدنى زمن الحروب الصليبية ، وأن أسرة المقريزى اكتسبت هذه التسمية لحلولها بتلك الحارة[٢] بعد خلوها من أهلها الأصليين .

ومهما يكن فالمعروف القطوع به أن أحمد بن على المقريزى نشأ قاهرياً ، بناحية من أعظم نواحى القاهرة امتلاء بالعمران والصخب وضوضاء الحياة[٣] ، وأن جده لأمه ، واسمه ابن الصايغ الحنفى ، هو الذى كفل تعليمه ، لضيق حال أبيه علىّ فيما

---

(١) لم يستطع كاتب هذه السطور أن يجد تعريفاً لهذه الجهة بمختلف المراجع الجغرافية والموسوعات ، ما عدا أطلس التيمس الجديد (Time's Modern Atlas) ، حيث ورد بفهرسه ما نصه (Maccarese, torr. environs di Rome) وربما كان من لطيف الاتفاق أن لفظ (macarisie) فى الفرنسية وهو شديد الشبه بلفظ المقريزى اسم لمجموعة من النبات انظر : (Nouvelle Larousse Illustré).

(٢) جهد المؤلف أن يعثر على تلك الحارة حين زيارته بعلبك ، ولكنه لم يستطع أن يتعرف عليها أو على موضعها من البلدة الحالية .

(٣) انظر المقريزى : المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق — ج ٢ ، ص ٩٥ — ٩٦ .

يبدو قبل أن يصبح من أصحاب الأملاك والعقار[١] . ولذا أخذ جده بتنشئته على أصول الحنفية ، وانكبّ هو على الدرس والتحصيل تحت إرشاد أساتذة عصره ، وأظهر نجابة ومقدرة . ثم مات ابن الصايغ سنة ١٣٨٤ م ، فترك المقريزى مذهب الحنفية ، وانتقل إلى الشافعية ، ودرس الفقه دراسة واسعة ، وأخذ من ثَمّ يهاجم الحنفية فى عنف استوجب لوم معاصريه له .

ثم التحق المقريزى بالخدم الحكومية ، فكان أول عهده بها ديوان الإنشاء بالقلعة ، حيث ظل يعمل موقعاً — أى كاتبا — حتى سنة ١٣٩٨م[٢] ؛ ثم غدا بعد ذلك نائباً من نواب الحكم — أى قاضياً — عند قاضى القضاة الشافعية ، فإماماً لجامع الحاكم ، ومدرساً للحديث بالمدرسة المؤيدية . وفى سنة ١٣٩٨ م اختاره السلطان برقوق (وكان حفياً به مشجعاً إياه) لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى ، فتولاها ثم تنحى عنها مرتين فى عامين . وفى ذلك الوقت تزوج المقريزى وأنجب ، إذ المعروف أن بنتاً له ماتت بالطاعون الذى اجتاح القاهرة وسائر البلاد المصرية ، سنة ١٤٠٣ م .

---

(١) نفس المؤلف والمرجع والجزء ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، ١٠٥ .

(٢) انظر المقريزى (المواعظ والاعتبار — طبعة القاهرة — ج ٢ ، ص ٢٢٥) حيث ذكر المؤلف أنه ظل فى وظيفة الموقع بديوان الإنشاء بالقلعة حتى تلك السنة .

وفى سنة ١٤٠٨ م انتقل المقريزى إلى دمشق ، ليتولى النظر على أوقاف القلانسية والمارستان النورى ، وليقوم بتدريس الحديث بالمدرستين الأشرفية والإقبالية هناك . ثم لم يلبث أن عينه السلطان فرج بن برقوق كذلك نائبا للحكم بدمشق ، استيفاء لشرط الواقف أن يكون المتنظرون على أوقافها قضاة بها . لكن المقريزى أبى قبول هذا الشرف ، على الرغم من عرض الوظيفة عليه مرارا من قبل السلطان ، ويظهر أنه سئم الخدم الحكومية وضاق بتكاليفها ، وأنه ملك من الموارد التى ربما ورثها عن أهله ما أغناه عن تضييع وقته فى كسب العيش ، عن طريق الدواوين ومجالس الحكم .

وكيفما كان الأمر ترك المقريزى دمشق وأعماله بها بعد إقامته عليها عشر سنوات تقريبا ، ورجع إلى القاهرة خاليا من عمل أو وظيفة ، ليتوفر على الدرس والاشتغال بالعلم ، ولا سيما التاريخ . ومن أجل ذلك رحل المقريزى وعائلته سنة ١٤٣٠ م حاجا إلى مكة ، وكان مجاوراً بها قبلاً إبان طلبه العلم ؛ بيد أنه ظل مقيما بمكة تلك المرة الثانية حتى سنة ١٤٣٥ م ، واشتغل بها فى تلك الأثناء بتدريس الحديث وبالتأليف فى التاريخ . ثم عاد المقريزى من بعدئذ إلى القاهرة ، حيث أمضى بقية حياته بحارة برجوان التى ما برح منذ شبابه يفاخر بها على سائر الحارات ، ويظهر

أنه جعل من منزله بها مكانا لمدارسة تلاميذه ، وللتأليف الكثير في مختلف علوم عصره [١]

بدأ المقريزى نشاطه العلمى الضخم بظهور تاريخ القاهرة المسمى المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، وهو كتاب عنى فيه صاحبه قبل كل شيء بدراسة الخطط حتى عرف بهذه التسمية حتى الآن ؛ وكان تأليفه إياه مابين عامى ١٤١٧ و١٤٢٦ م . على أنه يظهر أن المقريزى اعتمد — إلى حدّ كبير — فى تأليف هذا الكتاب الزاخر — الذى يعدّ فخر مؤلفاته — على كتاب صنفه قبله الأوحدى المؤرخ ، فنقل منه دون أن يشير إليه أو يعترف بأخذه منه ، ورماه السخاوى من أجل ذلك بقوله إن كتاب الخطط " مفيد لكونه (أى المقريزى) ظفر بمسودة الأوحدى فأخذها وزادها زوائد غير طائلة [٢] " ، بل ذكر السخاوى فى موضع آخر إن الأوحدى " كتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة ، تعب فيها وأفاد وأجاد ، وبيّض بعضها ، فبيّضها التقى المقريزى ، ونسبها لنفسه مع زيادات [٣] " ، وأن المقريزى نفسه اعترف بانتفاعه بتلك المسودات [٤] . ولم يستطع الإخصائيون من مستشرق القرن

---

(١) أبو المحاسن : كتاب النجوم الزاهرة — طبعة دار الكتب الملكية — ج ٨ ، ص ٢١٨ .

(٢) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص ٢٢ .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٣٥٨ — ٣٥٩ .

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٣٥٩ .

التاسع عشر الميلادى أن يدفعوا تلك التهمة تماما عن المقريزى ، أو يدلى أحدهم فيها برأى حاسم ، بل قال بصددها كاترمير (Quatremère) الفرنسى إن من الفطنة والصواب أن نسكت عن هذه القضية ، وأن نحذر الحكم فيها برأى قاطع[١] . على أنه مما يسترعى النظر أن المقريزى نفسه لم يدفع هذه التهمة بشىء قاطع ، ولم يستطع أن يدلى فى سياق الرد عليها بأكثر من قوله "حسب العالم أن يعلم ما قيل — ويقف عليه[٢]" . يضاف إلى ذلك أنه توجد بكتاب المواعظ شواهد داخليه تؤدى بالباحث إلى كثير من الشك على الأقل ، ومنها خلو بعض كتب المقريزى المتأخرة من عبارات واردة بكتاب المواعظ ، مثل إدلائه فى نسب الأكراد والأيوبيين برأى هام ، وعدم تكراره لهذا الرأى على أهميته فى كتاب السلوك[٣] ، ومنها كذلك ماجاء بكتاب المواعظ بصدد رباط البغدادية للنساء بالقاهرة ، حيث ورد مانصه : "وآخر من أدركنا فيه الشيخة . . . فاطمة بنت عباس[٤] البغدادية ،

---

(١) انظر (Quatremére : Mamlouks. I., p. XIII)

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق — ج ١ ، ص ١٢ ، وكذلك ج ٢ ، ص ٢٥٦ ، حيث أشار المقريزى إلى اتصاله بالأوحدى .

(٣) انظر مقدمتى للقسم الثالث من الجزء الأول من كتاب السلوك للمقريزي ، صفحة ى — ك .

(٤) المقريزى : كتاب المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق ج ٢ ، ص ٤٢٨ . انظر كذلك ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ ، حيث ورد اسم هذه السيدة الفاضلة فاطمة بنت عياش .

توفيت فى ذى الحجة سنة أربع عشرة وسبعمائة" ، وهذا التاريخ — إن صح المتن وصحت الوفاة — إنما يقع قبل مولد المقريزى (والأوحدى كذلك) بأزيد من خمسين سنة[١] .

ومهما يكن من شىء فالمقريزى صدّر هذا الكتاب الكبير بمقدمة جغرافية تاريخية مسهبة ، وتناول المدن والآثار المصرية القديمة والوسيطة بوصف دقيق ، مبتدئاً بالإسكندرية ، وعنى عناية خاصة بخطط الفسطاط والقاهرة طبعا ، فجاء الجزء الثانى منه — وهو نصف الكتاب — ثبتاً زاخراً بأحوال القاهرة وأخبارها ، وطرق المعيشة بأرجائها الواسعة فى العصور الوسطى . ثم أتبع المقريزى هذا الكتاب بتأليف فى تاريخ الفسطاط ، سماه عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط ، وهو فى الواقع تاريخ لمصر الإسلامية فى عهد الولاة . وأتى المقريزى ذلك بكتاب فى دولة الفاطميين بمصر ، واسمه اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا[٢] ، حتى إذا فرغ منه فكر فى تأليف كتاب يكون تاريخا للأيوبيين والمماليك ، ليتمم به سلسلة مؤلفاته فى

---

(١) يلاحظ أن هذه العبارة منقولة من الطبعة الكاملة المعدودة أحسن الطبعتين المعروفتين لهذا الكتاب ، وهى عبارة تتطلب تحقيقاً دقيقا بعد مقابلة النسخ المخطوطة بعضها على بعض ، ولا يسع كاتب هذا إلا أن يتمنى للمسيو جاستون فيت التوفيق فى إتمام طبعته الفاخرة لذلك الكتاب العظيم.

(٢) نشر الدكتور جمال الدين الشيال هذا الكتاب حديثاً فى طبعة مزيدة عن طبعته الأوربية القديمة . (دار الفكر العربى ، ١٩٤٩) .

التاريخ المصرى الوسيط ، من الفتح العربى إلى زمنه ، فكان كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، وهو الكتاب الذى غدا أساساً رئيساً لكل التواريخ المصرية فى عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية الأولى والثانية .

ويلاحظ أن المقريزى كتب المؤلفات المتقدمة لتكون ذيلاً على كتاب المواعظ والاعتبار ، وأنه قصد فى كل منها أن يشرح ما أجمله من أخبار الدول الإسلامية المصرية التى تناولها قبلاً فى بكر مؤلفاته . ومن أجل ذلك كذلك شرع المقريزى فى التأليف فى كتب التراجم والسير ، وأوغل فى مشروعين كبيرين من هذا النوع من الكتابة ، غير أنه لم يتمهما لضخامة المقياس الذى بنى عليه كلا منهما . أما أول هذين المشروعين ، فهو كتاب المقفى الكبير ، وكان المقصود به أن يكون معجما لتراجم حكام مصر ورجالها من المسلمين والنصارى منذ أقدم العصور إلى ما قبل عصره ، وقدّر له أن يكون فى ثمانين مجلدا ، ولم يستطع أن ينجز منها سوى ستة عشر فقط . أما ثانيهما ، وهو كتاب درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة ، فكان الغرض منه أن يكون معجما لتراجم معاصريه ، غير أن المقريزى تركه كذلك دون أن يفرغ من مراجعته .

وصرف المقريزى كثيراً من نشاطه الجمّ فى التاريخ الإسلامى العام ، فألف فى السيرة النبوية ، وفى قبائل العرب التى

نزلت مصر منذ الفتح ، وفى جغرافية حضرموت بجنوب شبه جزيرة العرب ، وفى الدويلات الإسلامية بالحبشة ، كما أسهم بنصيب وافر فى التاريخ الاقتصادى والنميات (Numsimatics) والتاريخ الاجتماعى ، حين ألف فى الأوزان والأكيال ، والمقاييس والنقود ، وفى تاريخ المجاعات والطواعين . وربما كان أهم مؤلفاته هذه كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، وكتاب إغاثة الامة بكشف الغمة ، إذ رجع المقريزى ، فى الكتاب الاول من هذين الكتابين ، أمر الفرقة والتنافس على الخلافة بين الأمويين والهاشميين الى عصبيات الجاهلية القديمة ، وأهمل جانب الحوادث المريرة والحروب المستحرة ، والشخصيات المتنافرة ، التى لم تعدُ كلها أن تكون أسبابا طارئة على جِذْم ذلك الخلاف وجرثومته ، مترسما فى ذلك سبيل ابن خلدون وفلسفته فى المقدمة[١] . أما الكتاب الثانى من هذين الكتابين فتناول المقريزى فيه تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة ١٤٠٥ م ، وهى السنة التى ألف فيها ذلك الكتاب ، وأدى به البحث إلى أن أسباب ما ينزل بالناس من مجاعات وطواعين وأغلية إنما هو "سوء تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد[٢]" ، وهو تخريج اقتصادى

(١) ابن خلدون : المقدمة — طبعة بولاق ، ص ١٠٧ ، وما بعدها .
(٢) المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة — نشر زيادة والشيال ، ص ٤ .

سليم مصدره كذلك مقدمة ابن خلدون وما جاء بها فى فصل الجباية وسبب قلتها وكثرتها ، وما يليه من الفصول المتفرعة على هـذا المعنى[١] ، بل إن تأثير ابن خلدون على المقريزى فى تأليف هـذا الكتاب بالذات تعدّى إلى طريقة العرض والأسلوب وفواتح الأبواب وخواتيمها ، فضلا عن الفكرة العامة[٢] . والحقيقة أن المقريزى تأثر بابن خلدون ومقدمته فى هذين الكتابين وغيرهما من مؤلفاته تأثراً فاق حد الإعجاب ، وآية ذلك وصفه للمقدمة بأنها " لم يعمل مثالها ، وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها ، إذ هى زبدة المعارف والعلوم ، ونتيجة العقول السليمة والفهوم ، توقف على كنه الأشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود ، وتنبئ عن أصل كل موجود ...[٣] " ، وهو وصف يدل فى وضوح على دراسة

(١) ابن خلدون : المقدمة — طبعة بولاق ، ص ٢٣٣ ، وما بعدها .

(٢) المقريزى . إغاثة الأمة بكشف الغمة — نشر زيادة والشيال صفحة د .

(٣) السخاوى . الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ١٤٤ . انظر المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤ ، حيث توجد ملاحظة عابرة إلى ما كان من عظيم الصلة والصداقة بين المقريزى وابن خلدون ، وانظر كذلك المقريزى : المواعظ والاعتبار — طبعة بولاق — ج ١ ، ص ٥٠ ، حيث أشار المقريزى إلى ابن خلدون إشارة التلميذ لأستاذه ، ولم يتحرّج أن يستشهد بعبارة لاذعة له فى وصف المصريين ، ونصها حسبما ورد بنفس المرجع والجزء والصفحة : " قال لى شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى : أهل مصر كأنما فرغوا من [يوم] الحساب " .

المقريزى لمقدمة ابن خلدون دراسة وافية ، كما يدل على دقة فهمه لمحتوياتها المتنوعة ، وتقديره لقيمتها العلمية بالقياس إلى غيرها مما عرفه خلال قراءاته الدائبة التى يبدو أنها لم تنقطع إلا بوفاته سنة ١٤٤٢ م .

والواقع أن المقريزى كان واسع القراءة والمعرفة والاطلاع ، كثير الدأب والمثابرة ، كما شهد بذلك معاصروه ، وكما يشهد به ما خلفه من مؤلفات لم يرَ الضوء بعضها حتى الآن ؛ وإن نظرة واحدة إلى ثبت مؤلفاته لكفيلة بإيقافنا على إلمامه بالخطط والتاريخ والترجمة ، والسكة والأوزان والمقاييس كما تقدم ، وهذا فضلاً عن معرفته بعلم الحشرات[1] والمعادن والطب والموسيقى ، وعلم الكلام والعقائد والتوحيد والحديث . لكن أعظم اهتمامه كان موجهاً نحو التاريخ ، لأنه كان مغرى به ، معنياً بتحقيقه والتأليف فيه ، فعرف منه جزءاً كبيراً معرفة تامة ، وحفظ منه كثيراً عن ظهر قلب . وأقر بذلك كله تلميذه الذى عرف معاصريه من المؤرخين ، وخليفته الذى اقتفى أثره ومنهاجه فى كتابة التاريخ ، وهو أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، حين قال فى كتاب النجوم الزاهرة : " وفى الجملة هو أعظم من رأيناه فى علم التاريخ وضروبه ، مع معرفتى لمن عاصره من علماء المؤرخين ،

---

(١) انظر كتاب نحل عبر النحل الذى نشره الدكتور جمال الدين الشيال (مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٤٦) .

والفرق بينهم ظاهر ، وليس فى التعصب[١] فائدة " .

أما عن أخلاق المقريزى الشخصية ، فالمعاصرون له أجمعوا على أنه عاش رجلا فاضلا ديناً ، مجداً أميناً فى عمله ، حتى إن السخاوى — مع شدته فى نقد كتاب المواعظ والاعتبار — يقول إن المقريزى كان على جانب عظيم من " حسن الخلق ، وكرم العهد ، وكثرة التواضع ، وعلو الهمة لمن يقصد ، والمحبة فى المذاكرة ، والمداومة على التهجد والأوراد ، وحسن الصلاة ، ومزيد الطمأنينة ، والملازمة لبيته " ؛ وإنه " حمدت سيرته فى مباشراته[٢] " ، أى فى الوظائف التى تولاها قبل أن ينصرف إلى حياة الدرس الخالية .

وحفل عصر المقريزى بكثير من المشتغلين بالتاريخ ، وربما بدا بعضهم أوسع منه معرفة بدخائل ذلك العصر ، نظراً لتقلبهم فى الوظائف الكبرى بالدولة المصرية ، ومن هؤلاء ابن حجر والعينى وخليل بن شاهين وابن عرب شاه والخالدى .

أما أحمد بن حجر فولده بمصر القديمة سنة ١٣٧٣ م ، وتوفى أبوه — وهو محدث نابه فى زمنه — ولما يبلغ أحمد من العمر سنتين ، فنشأ يتيما فى كنف أحد أوصيائه ، ودخل الكتاب بعد إكمال

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ، ج ٧ ، ص ٢٧٩ .

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٢٢ ، ٢٣ — ٢٤ .

خمس سنين ، واستظهر القرآن وهو ابن تسع ، ويقال إنه حفظ سورة مريم فى يوم واحد ، بل قيل إنه بلغ من قوة الاستذكار أنه كان يحفظ الصحيفة من الكتاب بعد مرتين ، الأولى تصحيحا والثانية قراءة فى نفسه ، ثم يسرضها عن ظهر قلب فى الثالثة . وسافر ابن حجر إلى مكة وجاور بها وهو فى سن الحادية عشرة ، فسمع بها وتفقه ؛ ثم حبب إليه الحديث وانصرف إلى دراسته انصرافا كليا بالحجاز والشام ومصر واليمن ، حتى صار حجة عارفا بالموالى والنوازل . واشتهر ابن حجر فى عالم التدريس والفتيا ، وذاعت شهرة مؤلفاته الضخمة المتعددة فى الحديث والفقه والتراجم ، وأشهرها كتابه المسمى فتح البارى فى شرح البخارى ، وهو فى ثلاثة عشر مجلداً ، ولو لم يكن له غيره من المؤلفات لكفى للتنويه بعلو كعبه ، على قول معاصريه[1] والمنتفعين به من المحدثين حتى الوقت الحاضر . وبلغ من شهرة هذا الكتاب أن السلطان شاه رخ بن تيمورلنك وغيره من ملوك البلاد الإسلامية بعثوا فى طلبه بسؤال علمائهم ، وأن نسخاً منه بيعت بثلثمائة دينار . وبدأ ابن حجر هذا الكتاب سنة ١٤١٠ م ، فلما فرغ منه أقيمت لختمه وليمة كبيرة بمنظرة التاج والسبع وجوه بأرض منية السيرج الحالية ، ألقيت فيها المدائح نظما ونثراً ، وحضرها ابن السلطان جقمق والأمراء ورجال الأدب ، ومن بينهم المقريزى

(١) ابن حجر الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٤٩٥ .

الذى كانت صداقة ابن حجر له وإعجابه بتآليفه جدّ عظيمين ، حتى إن ابن حجر نفسه لم يكتف بالإطناب فى مدح المقريزى حين ترجم له فى كتابه المجمع المؤسس والمعجم المفهرس[1] ، بل عرض عليه ما كتبه قبل أن يأذن للناسخ بنسخه .

وعاش ابن حجر شخصية بارزة فى مجالس الدولة المملوكية الثانية ، وذلك منذ سنة ١٤٢٤ م ، حين ولى منصب قاضى القضاة الشافعية ، وهو أكبر مناصب القضاة وقتذاك ، ولصاحبه الأولية على سائر قضاة المذاهب ، لكون مذهب الشافعى هو المذهب الرسمى للدولة . وظل ابن حجر متقلدا هذا المنصب الخطير مدة إحدى وعشرين سنة ، على أنه عزل عنه وأعيد إليه مراراً فى أثناء تلك الفترة الطويلة ، لاستقلاله فى الرأى واستمساكه بكلمة الحق ، مع لين الجانب والاحتياط والتواضع ، والميل إلى النكت اللطيفة والنوادر الظريفة . ولذا جاءت حولياته — أو مذكراته بعبارة أدق — وهى المسماة إنباء الغمر فى أبناء العمر مرآة لشخصيته الفذة ، وصفاته المحمودة ، فضلا عن أنها من أهم المراجع الأصلية لعصره ، إذ كثيراً ما يمضى فيها المؤلف بالقارئ إلى ما وراء الستار ، فينير ما استغلق فهمه من حوادث الدولة وسياستها العامة بالمراجع الأخرى . وبدأ ابن حجر هذه المذكرات بسنة ميلاده ، وهى لذلك قاصرة على تاريخ الدولة المملوكية فى حياته ، وتشبه فى ذلك — إلى حد

(١) توجد نسخة من هذا الكتاب بدار الكتب الملكية المصرية .

صغير — كتاب الاعتبار لابن منقذ الشيزرى ؛ وربما كان أدلّ ما فيها على صفاته الشخصية وأحاسيسه الرقيقة أنه حرص مثلاً على ذكر حال الورد كلما وصل إلى موسم الربيع والأزهار فى حولياته ، حتى وفاته سنة ١٤٤٩ م . .

وكان العينى كذلك من المؤرخين المشهورين فى عصره ؛ ومولده قبيل المقريزى بأربع سنوات فى عينتاب ، وهى بلدة صغيرة بين حلب وأنطاكية . وجاء العينى إلى القاهرة أواخر القرن الثامن الهجرى ، واختير لوظيفة المحتسب بالقاهرة والوجه البحرى سنة ١٣٩٩ م ، بدلا من المقريزى ، فظلّ هذا مغاضباً لذلك من أجل ذلك — فى أكبر الظن — طوال أيام حياته . وولى العينى تلك الوظيفة عدة مرات بين عامى ١٣٩٩ و ١٤٤٢ م ، وهذا فضلا عن توليته فى الوقت نفسه لكثير من المناصب الرفيعة ، ولاسيما زمن السلطان برسباى الذى جعله قاضى القضاة الحنفية سنة ١٤٢٥ م . وبقى العينى شاغلا لتلك الوظيفة الكبيرة مع الحسبة مدة اثنتى عشرة سنة متوالية ، وأضيف إليه فى أثنائها نظر الأحباس بالقاهرة ، ولم يكن لذلك التعدد فى الوظائف شبيه أو سابقة فى تاريخ الإدارة فى مصر الإسلامية ، على قول السخاوى وغيره من المعاصرين .

وغدا تمكن العينى من اللغة التركية أكبر عون على ما تهيأ له من حظوة لدى سلاطين المماليك ، وعلى الأخص برسباى الذى

لم يعرف من العربية إلا القليل ، فكان العيني يجلس إلى حضرته ساعات الليل ، ليفسر له غوامض الفقه والشريعة ، ويقرأ عليه من حولياته التي كتبها بالعربية ، وهي كتاب عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، ثم يترجمها له إلى التركية رأساً . وهذا الكتاب من أعظم ما كتب العيني في التاريخ ، وهو كذلك من أهم ما أهمله القوامون على نشر المخطوطات العربية وإحيائها حتى الآن . ومما خلفه العيني من المؤلفات كذلك ، (وبعضها بالتركية) شرح مطول في الحديث ، سماه باسم عمدة القاري في شرح البخاري ، وانتقى فيه من شرح ابن حجر ، بحيث نقل منه صفحات كاملة متتابعة ، ولم يتحرج عن معارضته كلما استطاع إلى ذلك من وسيلة أو مناسبة .

وإن في حياة العيني لمشاهد رائعة ، ومعلومات قيمة ، بصدد علاقات الصفوة من الأدباء والعلماء بسلاطين المماليك في ذلك العصر . غير أنه يظهر أن العيني لم يشأ أن تكون علاقاته بمعاصريه من أهل العلم على شيء من الوفاق والتقدير المتبادل ، وربما كانت حظوته عند السلاطين من أسباب الجفوة الطويلة بينه وبين المقريزي وابن حجر ، وهذا فضلاً عن أنه خلف الأول في منصب الحسبة ، ولأنه خلق بينه وبين الثاني جدلاً عنيفاً بشأن كتاب فتح الباري . وتوفي العيني سنة ١٤٥١ م ، وهو في الحادية والتسعين من عمره ، وذلك بعد سنتين من عزله عن القضاء ، بأمر السلطان جقمق .

لكن السلطان جقمق أُعْجِب بلباقة ابن عرب شاه ، وهو الذي ولد فى دمشق سنة ١٣٩٢ م ، ثم غادرها وأسرته سنة ١٤٠١ م إلى سمرقند ، حين غزا تيمورلنك دمشق ، وأخذ كثيراً من أهلها وناسها إلى عاصمته فى بلاد ما وراء النهر . وهناك تعلم ابن عرب شاه الفارسية والتركية والمغولية ، وتمكن منها جميعاً ، حتى أضحى قادرا على إجادة النظم فى كل منها ، بالإضافة إلى إجادته النظم فى العربية أيضاً .

وعاش ابن عرب شاه أخا سفر طول حياته ، فزار بلاد المغول وتركيا والشام وبلاد الحجاز ، حيث حج إلى مكة سنة ١٤٢٨ م . وجاء ابن عرب شاه إلى القاهرة سنة ١٤٣٩ م ، فأكرم وفادته ابن حجر والسخاوى وأبو المحاسن ، وأمضى هو المدة التى قضاها بالقاهرة فى البلاط السلطانى بدعوة من السلطان جقمق . وكتب ابن عرب شاه بعد ذلك رسالة فى مدح السلطان سماها باسم التأليف الظاهر فى شيم الملك الظاهر ، القائم بنصرة الحق ، أبى سعيد جقمق . وعلى الرغم من المبالغة الشديدة فى هذا الكتاب الذى صوّر فيه ابن عرب شاه مولاه كأنه صورة مجسدة للفضيلة ، بل رفعه فيه إلى مرتبة الأولياء والقديسين ، فإنّ الكتاب إلى جانب ذلك يشتمل على تفاصيل تاريخية قيمة ، ونقد للحوادث الماضية . أضف إلى ذلك أن ابن عرب شاه كتب هذا الكتاب — على قوله — ليكون تِرياقاً ضدّ السموم والخبائث التى أولغ منها قلمه فى

كتاب سابق ألفه فى مساوىء تيمورلنك ، وسماه باسم عجائب المقدور فى أخبار تيمور ، — يريد بذلك أنه إذا صوّر فى الكتاب الأول حياة عملاق أعرج مفرى بالتخريب والهدم ، فإنه يرسم فى الكتاب الثانى صورة سلطان عادل كامل .

وزار ابن عرب شاه مدينة القاهرة عدة مرات بعد ذلك ، غير أنه لم يلق من السلطان جقمق شيئاً من حسن المعاملة ، على غير انتظار ، وهو الذى أطنب فى مديحه ، إذ أوحى إلى جقمق أنه يعمل ضدّ مصالح الدولة المملوكية . ثم وشى به أخيراً عند السلطان بأنه يعمل ضدّ مصالح جقمق نفسه ، فأمر بالقبض عليه وامتحن على يده ، وأرسل إلى سجن المقشرة سنة ١٤٥٠ م ، وهو فى شدة المرض . وعلى الرغم من تبرئته من جميع ما نسب إليه من التهم ، حتى إنه لم يمكث بالسجن سوى خمسة أيام ، لم يلبث أن قضى مهموماً حزينا بالقاهرة فى شهر أغسطس من تلك السنة .

إلى جانب أولئك المؤرخين بقى اثنان ممن عاصروا المقريزى ، وهما وإن لم يشتغلا بكتابة التاريخ فكلّ منهما خلّف مؤلفا له قيمة واضحة فى فهم أصول الحكم وطرق الإدارة بمصر والشام فى العصور الوسطى ، وأولهما خليل بن شاهين ، وثانيهما الخالدى الذى ألف فى ديوان الإنشاء بالقاهرة كتاباً لا يعرفه إلا الأقلون حتى الآن .

أما خليل بن شاهين فمولده سنة ١٣٧٢م ببيت المقدس ، حيث

عاش أبوه أميراً من أمراء المماليك فى تلك النيابة الشامية . وجاء ابن شاهين إلى القاهرة فى شبابه ، فدرس الحديث على ابن حجر ، غير أنه ترك ممارسة العلم ، والتحق بالفرقة المملوكية المسماة باسم فرقة أولاد الناس ، وهى الفرقة الخاصة بأبناء الأمراء من المماليك . وسرعان ما مضى ابن شاهين قدما فى طريق الوظائف ، حتى إنه جمع فى يده سنة ١٤٣٤ م وظيفة النائب والحاجب والمشدّ بالإسكندرية ؛ ويرجع بعض الفضل فى ذلك التمدد إلى أنه كان حماً للسلطان برسباى . وتقلب ابن شاهين بعد ذلك فى كثير من المناصب والنيابات بمصر والشام ، حتى إذا كانت سنة ١٤٤٨ م أنعم عليه السلطان جقمق برتبة أمير مائة مقدم ألف ، وهى أكبر الرتب الحربية فى دولة المماليك الأولى والثانية .

أما مؤلفاته فأهمها كتابه المسمى زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، كتبه ابن شاهين فى مجلدين يضمان بين دفتيهما أربعين فصلا ، ثم اختصره فى مجلد واحد إلى اثنى عشر فصلا ، وذلك فى عصر السلطان جقمق . وهذا المختصر هو الذى بقى حتى الآن ، وفيه تناول المؤلف الدستور المملوكى ، وبيّن الوظائف الحربية والإدارية فى دولة المماليك الثانية التى تقلب فى مناصبها حتى قبيل وفاته بالقاهرة فى نوفمبر سنة ١٤٦٨ م .

وأما الخالدى ، واسمه بهاء الدين محمد العمرى الخالدى ، فلا يعرف عنه حتى الآن (فيما أعلم) سوى أنه مؤلف لكتاب اسمه

المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الإنشا ، وهو كتاب مشابه فى موضوعه لكتاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، لشهاب الدين بن فضل الله العمرى المتوفى أواسط القرن الرابع عشر الميلادى ، ولكتاب التعريف بالمصطلح الشريف للمؤلف نفسه ، ولكتاب صبح الأعشى للقلقشندى المتوفى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى . ومن الجلى لكل من يطلع على هذا الكتاب المخطوط أن مؤلفه تقلب كالعمرى والقلقشندى فى وظائف ديوان الإنشاء بالقاهرة مدة طويلة ، بدليل معرفته أسماء الدول والأقطار التى انقطعت رسائلها عن مصر فى عصره ، وبدليل إلمامه التام بأساليب الكتابة والدبلوماتية (diplomatics) إلى مختلف الملوك فى الشرق والغرب .

ومما وضح لكاتب هذه السطور أثناء قراءته لهذا المخطوط أن مؤلفه كتبه فى منتصف عهد السلطان برسباى تقريباً ، أو بعد سنة ١٤٣٢ م على التحقيق ، فهو حلقة ظلت حتى الآن مفقودة عند المشتغلين بتاريخ النظم المصرية فى العصور الوسطى ، وبه معلومات انفرد بها عمن سبقه من المؤلفين فى هذه الناحية من التاريخ المصرى .